المقاومة اللّغويّة وهدم الخطاب الكولونياليّ
في منجزات العلّامة عبد الحميد بن باديس

Linguistic resistance and the demolition of colonial discourse in the accomplishments of the Theologist Abdelhamid Ben Badis

ط د/ حمزة رقيق

المشرف: د/ عبد النّاصر بن بنّاجي

المركز الجامعيّ عبد الله مرسي – تيبازة (الجزائر)

Hamzaregi@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/09/04 تاريخ القبول: 2022/09/30

ملخص:

يمارس المستعمر هيمنة لغوية على مستعمراته وِفق سياسات ومخططات لغوية مُحكمة وفي الوقت نفسه قُوبِلت تلك السياسات بمقاومات لغوية حاولت بها البلدان المستعمَرة التخلص من تلك الهيمنة وهدم ما يحاول تأسيسه في بلادها.

وقد سلك المستعمر الفرنسي في الجزائر سياسات لغوية مختلفة في أشكال معلنة وأخرى خفية لبسط هيمنةِ لغته واستعمار الجزائر لغويا، وكان عبدُ الحميد بن باديس مِن أبرز من تصدى لهذا النوع من الاستعمار الخطير، ومن هذا المنطلق سيحاول هذا البحث الإجابة عن الإشكالية الآتية:

ما الجهود التي بذلها عبد الحميد بن باديس لمقاومة الخطاب الكولونيالي وهدمه ؟

الكلمات المفتاحية: مقاومة، هدم، كولونيال، اللغة، الجزائر.

Abstract:

Colonialism exercises linguistic dominance over its colonies in accordance with rigorous language policies and schemes; At the same time, those policies had been met with linguistic resistance by which colonial countries had tried to eliminate that hegemony and to destroy what they were trying to establish in their own country.

The French colonizer in Algeria has pursued various linguistic policies in professed and hidden forms to extend the dominance of his language and Algeria's linguistic colonization. Abdelhamid Ben Badis was one of the most prominent respondents to this type of dangerous colonialism. From this point of view, he will try to answer the following problematic:

What efforts has Abdelhamid Ben Badis made to resist and demolish colonial rhetoric?

***keywords**:* Resistance, demolition, colonial, Language, Algeria.

مقدمة:

يختلف موضوع البحث في اللغة باختلاف زاوية النظر إليها، فمِن الدراسين مَن ينظر إلى اللغة على أنها ظاهرة طبيعية ومعطًى بشري يتحكم فيها الإنسان، ويعتبرها أداة لتأدية الوظائف التي يصبو إليها، وفي المقابل هناك دراسات أخرى تنظر إليها على أنها ظاهرة طبيعية–كذلك–، لكنها تتحكم في الإنسان، فبحَثَتْ في طريقة توظيف اللغة وكيفية جعلها أداةً للتحكم في الإنسان، بل وفي التحكم في المجتمعات، ومن هذا المنطلق برزت دراسات لسانية عدّة تبحث في هذا المجال عُرفت فيما بعد بفروع عديدة؛ أهمها السياسة اللغوية والتخطيط اللغوي، وضمن هذا المجال يندرج موضوع هذه الورقة العلمية.

فالهيمنة اللغوية التي مارسها المستعمر على مستعمراته وِفق سياسات ومخططات لغوية مُحكمة؛ قُوبِلت بمقاومات لغوية حاولت بها البلدان المستعمَرة التخلص من تلك الهيمنة وهدم ما يحاول تأسيسه في بلادها.

لقد سلك المستعمر الفرنسي في الجزائر سياسات لغوية مختلفة في أشكال معلنة وأخرى خفية لبسط هيمنةِ لغته واستعمار الجزائر لغويا، وكان عبدُ الحميد بن باديس رئيسُ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مِن أبرز مَن تصدى لهذا النوع من الاستعمار الخطير، ومن أجلِّ مَن قاوم من أجل الحفاظ على اللغة العربية في الجزائر.

ومن هذا الأساس سيحاول هذا البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية:

ما المقصود بالمقاومة اللغوية؟ وما أهدافُ السياسة اللغوية الاستعمارية في الجزائر؟

وما الجهود التي بذلها عبد الحميد بن باديس لمقاومة الخطاب الكولونيالي وهدمه؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة انتظم هذا البحث في مبحثين؛ تسبقهما مقدمة وتليهما أهم النتائج، وتفصيلها كالآتي:

- مقدمة.
- مبحث يتحدث عن مفهوم المقاومة اللغوية، والسياسية اللغوية الاستعمارية في الجزائر وأهدافها.
- مبحث آخر يتحدث عن استراتيجيات المقاومة اللغوية للخطاب الكولونيالي في منجزات عبد الحميد بن باديس.
- استنتاجات البحث.

أولا: المقاومة اللغوية والسياسة اللغوية الاستعمارية في الجزائر:

1– مفهوم المقاومة اللغوية:

هي ما تقوم به المجتمعات من إحياءٍ للغتها وصيانتها خلال الوقت الذي يحدث فيه التغيير، وذلك بأن يكون فيه المتحدثون باللغة التي تمر بمرحلة تحوّل موالين للغتهم ومصرِّين على الحفاظ عليها[1].

وفي هذا الصدد يقول نهر موش (Nahir Moshe): "الحفاظ على اللغة هو الحفاظ على استخدام اللغة الأم للمجموعة، كلغة أولى، وكوسيلة للتواصل وكرمز للمجموعة أو للهوية الوطنية وللثقافة، حين تتعرض للتهديد أو للضغوط السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو التعليمية، أو غيرها أو ينظر إليها على أنها تهديد"[2].

ويشير لويس هاو (Lewis Huw) إلى مفهوم المقاومة اللغوية؛ بأنّ صيانة اللغة هي محاولة لإيقاف وعكس عملية التحول اللغوي: فيتمّ بذل جهد لضمان عدم تراجع واختفاء اللغة الضعيفة في نهاية المطاف، والحفاظ على اللغة يكون في الحالة التي تبدأ فيها مجموعة لغوية في التحول إلى لغات أخرى، فتتعرض لخطر في ظل ظروف إمبريالية (هيمنة) لغوية[3].

من خلال ما ذُكر يمكن الوصول إلى مفهوم المقاومة اللغوية بأنها تلك الاستراتيجيات والجهود الّتي يبذلها المتكلمون باللغة المستضعَفَة من أجل الحفاظ عليها من التحوّل أو الانحلال في اللغة المهيمِنة المستضعفِة.

وبعبارة إجرائية هي تلك الاستراتيجيات والأدوات والجهود التي بذلها الجزائريون من أجل الحفاظ على لغتهم العربية، سواء ضد تحولها إلى العاميّة أو ضد اندثارها وإحلال اللغة الفرنسية بدلها.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى بعض الأدوات والاستراتيجيات المتّخذة في الحفاظ على اللغة، إذ يستخدم الباحثون في هذا المجال المقاربة الوثائقية ومفاهيم اجتماعية وإيديولوجية وبراغماتية لمحاربة التحول أو التهديد أو الانقراض أو الموت الذي قد يصيب اللغة، فتتخذ المجتمعات في هذا المجال تدخلات على لغاتها وهويتها التي قمعتها الهيمنة اللغوية، ويستخدمون طرقا متعددة الجوانب وأدواتٍ لإحياء لغتهم وتنشيطها وصيانتها، وتشمل: المدارس، والمناهج التعليمية، ودور محو الأمية، وتكثيف الإعلام والوعي بعواقب موت اللغة عن طريق الصحف والمجلات، والتلفزيون، والإذاعة، وإنشاء النوادي والملتقيات... كلّ ذلك في سبيل النهوض بلغتهم ومقاومة لغة الآخر[4].

2– السياسة اللغوية الاستعمارية في الجزائر:

السياسة اللُّغويّة بمفهومها العام هي مجموعة الاستراتيجيات والأدوات والأهداف السياسية الّتي تعتمدها الدولة اتجاه لغتها للحفاظ عليها أو لتحقيق الأهداف المرجوة منها[5]، أمّا السياسة اللُّغوية بمفهومها الاستعماري فهي مجموعة الاستراتيجيات والأهداف السياسية الّتي تعتمدها السلطة المستعمِرة اتّجاه لغة البلد المستَعمَر بطريقة شرعية أو غير شرعية[6].

سعى المستعمر الفرنسيّ حثيثا إلى وضع سياسة لغوية لتَغيير السلوك اللغوي للجزائريّين اتّجاه لغتهم الأولى (العربيّة)، بتغيير قيمتها اللُّغويّة؛ من لغة: جامعة، رسميّة، لغة الأدب والثَّقافة إلى لغة: ميتة، غريبة، تحاكيها مجموعة من اللّهجات المشتَّتة، مغيَّبة لا يمكنها تقلُّد منصب السيادة، وفقيرة مهملة[7].

كانت أهداف السياسة اللّغوية للمحتل الفرنسي من أهداف سياسته الاستعماريّة، بل الجزء الأهم منها والوسيلة الأخطر في تحقيقها وتفعيلها، ومن بين أهم أهدافها[8]:

أ- تقويض انتشار اللّغة العربيّة؛ فقد وجد المحتل عند غزو الجزائر مجتمعا متعلما، تنتشر فيه المدارس ودور التعليم في كلّ مدينة وقرية، وعليه اتجه المحتل إلى القضاء على جميع أوجه التّعلم بالعربيّة، والعمل على تحويله من مجتمع متعلّم إلى مجتمع جاهل.

ب- إحلال الفرنسيّة محل اللّغة العربيّة في المدارس والمحاكم والإدارات وحتّى في المعاملات بجعلها اللّغة الرسميّة للبلاد.

ج- جعل الفرنسيّة اللّغة القوميّة للجزائريّين؛ باعتبار الجزائر مقاطعة تابعة لفرنسا وتقع تحت طائل الأمة الفرنسيّة، وردّا على هذا قال عبد الحميد بن باديس مقولته الخالدة: "ن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت. بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج..."[9].

د- إضعاف مكانة العربيّة بين أبناء الجزائريّين، بتفضيل الدارجة العامية، والعمل على نشر تعلّمها ودراستها.

هـ- السعي إلى تقسيم الجزائر إلى مجتمعات لغويّة بتذكية الفروقات اللُّغوية الإثنية بين العرب والأمازيغ وتزكية العنصر الأمازيغي على غيره بترسيخ عقدة الأرض والهويّة واللّغة دراسة وبحثا.

وفي هذا الصدد يقول الجنيرال الفرنسي لويس لويطي (Louis Lyautey) "تمثل العربية في أعين هؤلاء البربر ما حاربوا ضده منذ ثلاثة عشر قرنا (أي: الاندماج العربي)، ليس علينا أن نعلِّم العربية لمجموعات من الناس استغنوا عنها دائما، إن العربية عنصر أَسْلَمة لكونها تُلقَّن بالقرآن، وأما مصلحتنا فتفرض علينا أن نجعل البربر يتطورون خارج إطار الإسلام، من المنظور اللغوي علينا أن ننزع إلى المرور مباشرة من البربرية إلى الفرنسية، ولذا نحتاج إلى عارفين بالبربرية، ويتوجب على ضباط مخابراتنا أن ينكَبُّوا بعزم على دراسة اللهجات البربرية"[10].

ثانيا: استراتيجيات المقاومة اللغوية للخطاب الكولونيالي وهدمه في منجزات عبد الحميد بن باديس:

سعى العلامة عبد الحميد بن باديس (1889-1940) رئيسُ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إبّان فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر سعيا حثيثا إلى إحياء مقومات الهوية الجزائرية وحمايتها، واللغةُ العربية هي أحد أهم مكونات هذه الهوية، فكان أسمى هدف له هو الوقوف في وجه محاولات المستعمر الفرنسي لفرنسة الجزائريين والقضاء على لغتهم العربية؛ فبذل مختلف الطرق لتعليمها ونشرها والدفاع عنها، نذكر من تلك الاستراتيجيات التي سلكها في مقاومته اللغوية ما يأتي:

1- تكوينه المعرفي ونشأته العلمية:

كانت نشأة العلامة ابن باديس بين أحضان اللغة العربية، فكانت كتاباته ومقالاته تنضح بالفصحى، وتشع بيانا، ولا يمكن لمن يحب العربية ويسعى للدفاع عنها ألا يكون على علم كبير بقواعدها أصولا وفروعا، ولا يكون الحرص عليها وعلى نشرها إلا ممن تمكنت العربية من نفسه، وحظيت باهتمامه علما ومدارسة، وما هذا القدر من العلم بها إلا من ثمار التكوين والنشأة التي شب عليها وهو صغير، حيث حفظ القرآنَ الكريم منذ الصغر وتلقى تعليمه على الطريقة التقليدية المعروفة، فلم يلتحق بالمدارس الفرنسية على غرار أبناء العائلات الأخرى، كما تلقى تعليمه على يد الشيخ حمدان لونيسي في العلوم العربية والإسلامية، فتفتح عقله على آفاق واسعة منها، مما اطلع عليه من أمّات الكتب، فضلا عن حفظه لمدونة اللغة العربية الأولى القرآنِ الكريم، وكتاب لسان العرب لابن منظور، ونهاية الأرب في فنون الأدب للزبيدي، والموازنة بين الطائيين للآمدي، وديوان المتنبي، وغيرها[11].

ثم التحق بجامع الزيتونة بتونس وحصل على شهادة التطويع العالمية سنة 1912، وأبرز من أخذ عنهم العربيّة وتأثر بهم في تونس الإمام اللغوي المفسر محمد الطاهر ابن عاشور يقول ابن باديس: "وإنْ أنْسَ فلا أنسى دروسًا قرأتها من ديوان الحماسة على الأستاذ ابن عاشور، وكانت أول ما قرأت عليه فقد حببتني في الأدب والتفقه في كلام العرب وبثّتْ فيَّ روحًا جديدًا في فهم المنظوم والمنثور، وأحيت مني الشعور بعزِّ العروبة والاعتزاز بها كما أعتز بالإسلام"[12].

إضافة إلى هذا رحل إلى المشرق العربي، فحلّ بأرض الحرمين واستفاد من علمائها، ومرَّ كذلك على الشام (دمشق ولبنان)، وهكذا فإن ابن باديس أتم دراسته بالرحلة في البلاد الإسلامية ومحادثة العلماء، وهو ما يعتبر من شروط العالم المتمكن في التقاليد العلمية، والمناهج التربوية الإسلامية، وبالطبع فإن هذه الرحلة أطلعته على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية، وفيها خبَر أحوال الناس؛ مما وسّع أفقه وبصَّره بطريق الخلاص والثورة الفكرية التي تعتمد على التربية في تكوين القادة من النخبة أو الصفوة المبدعة[13].

ومما لا شك فيه أن هذا الزاد الهائل من المعارف والعلوم والمحفوظات في مختلف العلوم الشرعية واللغوية والأدبية كان له عظيم الأثر في حب ابن باديس للعربية وآدابها وأهّله للتصدي للغة الاستعمار ومقاومتها، فهذه السيرة الحسنة في رحاب العربية أهلته كي يتصدى وينبري لكل ما يصيب العربية من لوثات العامية ومساعي التغريب وغيرها من سياسات لغوية استعمارية، والذي كان من أهم أهدافها محو العربية ومسخها، إما باللهجات العامية أو باللغة الفرنسية، ولا يخفى ما في ذلك من ضرر فقد عمد الاستعمار الفرنسي منذ الوهلة الأولى إلى تدمير اللغة العربية في الجزائر، حيث كتب الدوق روفيغو عن أهداف السياسة التعليمية الاستعمارية الفرنسية قائلا: "لن تصبح الجزائر مستعمره فرنسية إلا عندما تصير لغتنا هي اللغة السائدة، وتتأقلم فنوننا وعلومنا، ولا يمكننا التشكيك في ذكاء العرب، فالتاريخ شاهد على ذلك، إن المعجزة الحقيقية التي يجب تحقيقها هي تحويل –بخطى بطيئة– اللغة الفرنسية محل اللغة العربية خاصة إذا ما أقبل الجيل الجديد على التعليم جماعات"[14]، فكان تكوين ابن باديس حائط صد، يعلم قيمة العربية ومنزلتها ويعلم حقيقة استبدالها ومحوها باللغة الفرنسية أو العامية.

2– رئاسته للجمعية وإشرافه على التعليم والمقاومة:

بعد أن اكتمل تكوين ابن باديس المعرفي، وحصّل زادا شرعيا ولغويا لا بأس به، وعاد من رحلته إلى المشرق، ووافق ذلك عودة كثير من العماء الجزائريين: عزم على تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بعد أن اتفق مع الإمام الإبراهيمي على تأسيسها، فكان ابن باديس رئيسها الأول[15].

أما عن مبادئ هذه الجمعية فيمكن اختصارها من خلال الشعار المعروف الذي كانت تكتبه على غلاف كتبها ومنشوراتها؛ وهي: "الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا"، كما أن الجمعية سعت جاهدة إلى استقلال الجزائر من خلال أهدافها السامية الّتي عبر عنها الإمام ابن باديس قائلا: "العروبة والإسلام، والعلم والفضيلة، هذه أركان نهضتنا وأركان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي هي مبعث حياتنا ورمز نهضتنا، فما زالت هذه الجمعية منذ كانت تفقهنا في الدين وتعلمنا اللغة، وتنيرنا بالعلم، وتحلّينا بالأخلاق الإسلامية العالية، وتحفظ علينا جنسيتنا وقوميتنا، وتربطنا بوطنيتنا الإسلامية الصادقة، ولن تزال كذلك بإذن الله ثم بإخلاص العاملين"[16]، فلا يخلو مبدأ من مبادئه ولا هدف من أهدافه إلا كان في مقدمتها الحفاظ على اللغة العربية والدفاع عنها ومقاومة لغة الاستعمار.

ولا يكفي المقام لاستعراض تاريخ دفاع ابن باديس عن الحركة التعليمية ومقاومته وجهاده التربوي الذي وقف حياته كلها عليه، فقد تعرَّض لاضطهاد الاستعمار ومطاردته وعراقيله، ولكنه ثبت ثبات الرجال أصحاب المبادئ لما يتسم به من التفاؤل واليقين بأن العاقبة له، وللأمة الجزائرية، معتقدا أن كل محاولة لحمل الجزائريين على ترك لغتهم أو دينهم أو تاريخهم أو شيء من مقوماتهم محاولة فاشلة، وحين أراد الاستعمار منعه من التعليم كتب مقالا تحت عنوان: "بعد عشرين سنة في التعليم نسأل هل عندنا رخصة"[17]، وحين صدر قانون 8 مارس 1938 بمنع التعليم كتب مقالاً آخر تحت عنوان: "يالله للإسلام والعربية في الجزائر، كل من يعلِّم بلا رخصة يغرّم ثم يغرّم ثم يسجن"[18] وأعلن فيه عزمه على المقاومة بكل قوة قائلاً: "وإننا نعلن لخصوم الإسلام والعربية عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا وسنمضي بحول الله في تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا، ولن يصدنا عن ذلك شيء فنكون قد شاركنا في قتلهما بأيدينا، وإننا على يقين من أن العاقبة– وإن طال البلاء– لنا وأن النصر سيكون حليفنا لأننا قد عرفنا إيمانا، وشاهدنا عيانا، أن الإسلام والعربية قضى الله بخلودهما ولو اجتمع الخصوم كلهم على محاربتهما"[19]، وكتب في مناسبة أخرى: "أما الذين يحاربون العربية فهم يفرقون ويشوشون، فسيندمون، وتنشر العربية بقوة الحق والفطرة وهم كارهون"[20].

3- تكوينه لأجيال متعلمة وواعية:

حرص ابن باديس على تكوين تلاميذ وطلبة يحملون ويواصلون مسيرة الدفاع عن العربية، والعمل من أجل نهضتها في الجزائر، لتصبح فيما بعد مؤهلة كي تدافع عن مبادئها السامية "الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا".

هذا ما كانت ترمي إليه فلسفته من خلال الثورة التعليمية التي قام بها، إذ مست كل شريحة من شرائح المجتمع؛ بدءا بالأطفال فالشباب فالشيوخ؛ بل حتى النساء، وذلك في أماكن متعددة؛ في المساجد والمدارس والنوادي الثقافية... وكان العلامة ابن باديس يلقي الدروس بنفسه ويشرف عليها في الجامع الكبير، حيث كان يبدأ دروسه بعد صلاة الفجر ثم يظل طوال النهار يعلم الأطفال الدّين وعلوم العربية متدرجا معهم حسب مستوياتهم المختلفة، ثم يستأنف دروسه مع الكهول والشيوخ من التاسعة مساء إلى منتصف الليل "كان كلّ همه في تلك الدروس أن يتقن هؤلاء جميعا فهم مبادئ العربية وتلاوة القرآن وتدبّره، بالإضافة إلى مبادئ التعاليم الإسلامية"[21].

كما اهتم ابن باديس خلال تلك الدروس بتدريس القرآن الكريم تلاوةً وفهمًا وتدبرا حتى يرسِّخ في نفوسهم العروبة الأصيلة والارتباط العميق بالإسلام والعربية وفي هذا يقول ابن باديس: "فإننا نربي– والحمد لله– تلامذتنا على القرآن، ونوجِّه نفوسهم إلى القرآن من أول يوم وفي كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكوّن القرآنُ منهم رجالاً كرجال سلفهم وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تُعلِّق هذه الأمة آمالها وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها"[22]، وهذا الحرص الكبير من ابن باديس رحمه الله على العناية بالقرآن الكريم إدراكا منه أنه الرافد القوي والمنبع الثري للثقافة العربية.

كما اختار مع علماء الجمعية من الكتب المقررة في مدرس الجمعية ومساجدها كتاب "تاريخ آداب العرب" للأديب مصطفى صادق الرافعي، وسلك طريقته في تدريس آداب العربية وتاريخها بعد أن راسله، يقول الرافعيّ: "وقد كتب لي صاحبنا العالم المغربي في بلاد الجزائر أنه تألفت عندهم جمعية علمية إسلامية لإفتاء الشعب في أمور دينه وإرشاده وتعليمه، ولها شعبة خاصة بالأدب العربي هو رئيسها، وأن هذه الشعبة قررت أن يكون

الأدب العربي في الجزائر على الخطة التي رسمتها في تاريخ آداب العرب، وأنها تستعمل لذلك وتتخذ طريقتي، فبارك الله في هذا الرجل الفاضل"[23].

واختيار ابن باديس للرافعي دون غيره سببه أن الرافعي كاتب إسلامي وأديب عربي يدافع عن الإسلام والعربية، ولما تميزت به كتاباته من توجه إسلامي، وكذا المواضيع التي كان يكتب عنها في مقالاته عن القيم الإسلامية[24].

أما العلوم والكتب التي كان يشرف على تدريسها مع علماء الجمعية، نذكر منها –على سبيل المثال– ما كان مقررا في المسجد الأخضر الذي كان مشرفا عليه بنفسه: فالعلوم التي كانت تدرّس هي: التفسير، والحديث، والفقه، والفرائض، والعقائد، والأدب، والمواعظ، والتجويد، والأصول، والمنطق، والنحو، والصرف، والبلاغة، والأدب، والمحفوظات والمطالعات، ودراسة الإنشاء، والحساب، والجغرافية، والتاريخ.

والكتب المدروسة هي: الموطأ، وأقرب المسالك، والرسالة القيروانية، ومتن ابن عاشر والزندبوي، ومفتاح العلوم، والتنقيح، والسلم المنورق، وشرح المكودي، وقطر الندى، ومتن الآجرومية، ومتن الزنجاني، واللامية، والسعد، والجوهر المكنون، من ديوان الحماسة، من ديوان المتنبي، آمالي القالي، من مقدمة ابن خلدون[25].

والمتأمل في العلوم والكتب والمدروسة سيلاحظ أن لعلوم العربية وكتبها الحظّ الأوفر لما لها من أهمية.

4– البعثات العلمية:

أدرك عبد الحميد بن باديس قيمة تعليم النشأ وإعداده للذود عن الجزائر ولغتها، فلم يكتف بتكوينه وتعليمه بما سلف ذكره؛ فانتقل إلى البعثات العلمية إلى المعاهد في غرب البلاد الإسلامية وشرقها، وكان من أهم ما قام به أن "ربطت معهد ابن باديس بالجامع الأعظم (الزيتونة) في تونس من حيث الامتحانات والبرامج والشهادات"[26]، تشجيعا وتحفيزا للطلبة.

ويصف ابن باديس انطباعه عن إحدى البعثات العلمية إلى تونس في مقال نشره سنة 1921 بعنوان "نهضة جزائرية بالحاضرة التونسية" يقول فيه: "إن الشعور الوطني إذا أفعم القلوب لابد أن تظهر ثمراته في الأعمال حتى تبلغ الأمة غاية الكمال... وها هم أولاد إخواننا الميزابيين سرى فيهم شعور صحيح فولعوا بالتقدم، وأخذوا يتمسكون بأسبابه بجد واجتهاد، أخذوا في طريق التجارة حتى ملكوا أزمتها، وصار العضو القوي الإسلامي بالجزائر فيها، وها هم اليوم يسعون في طريق العلم، ويرحلون في طلبه، وأخلق بهم أن ينالوا منه ما يريدون... حللتُ بتونس فاستدعتني جماعتهم إلى الحضور عندهم في دارهم ليلا فلما فرغنا من العشاء خرجت إلى صحن الدار المتعلمة بالمدارس التونسية، على الأسلوب الحديث الذي يجمع بين العلوم الدينية والدنيوية واللغة العربية والفرنسوية مع حفظ القرآن فاصطفوا بنظام، وشنفوا أسماع الحاضرين بالأناشيد الوطنية والمدرسية، وتحاوروا بالمناظرة القلمية، فرأينا منهم أهلّة توشك أن تكون أقمارا، وغروسا طيِّبة توشك أن تُجني ثمارا"[27].

5- إنشاء الصحف والمجلات:

اهتم عبد الحميد بن باديس مع أعضاء الجمعية بإنشاء الصحف المجلات والدوريات، وعلم دورها البارز في مقاومة لغة الاستعمار والنهضة بالعربية وآدابها، فعمِل على تأسيس صحف وجرائد كانت مدارس كبرى لتعليم الطلبة والمثقفين، وكان لها دور مهم في النهضة بالعربية في الجزائر ومقاومة لغة المستعمر وإعطائها المرونة والحيوية، والتخلص من التردي اللغوي الذي أصاب كتابنا من قبل، حيث تطور الأسلوب فصار مطبوعا سهلا يتناول اللفظ المعبِّر عن المعنى الصحيح في وضوح وجلاء[28]، يقول الشيخ مبارك الميلي معبرا عن أهميه الصحافة ودورها المكين في نشر الإصلاح وحفظها للغة العربية: "من أهم الخطط وأعم الوسائل لتحقيق الغايات ونشر الدعوات: إنشاء الصحف السيارة التي تحفظ جيّد الأقوال وسديد النظرات، وتدخل على الطالب في مسكنه، وعلى التاجر في متجره، وعلى الصانع في مصنعه، وعلى الملإ في ناديهم، وعلى المسافرين في مراكبهم، بل لا يحجبها على الفتيات خدر ولا حرس، وما وُجدت فكرة الإصلاح الديني بأرض الجزائر حتى وجدت صحف تعبر عنها وتبشر بها وتدافع دونها"[29].

وتعتبر "جريدة المنتقد" من أولى الجرائد التي أنشاها ابن باديس، وهي جريدة أسبوعية صدرت عنه سنه 1925، إذ تعتبر هذه الجريدة النادي الثقافي والأدبي الذي اجتمعت فيه أقلام الشباب كتابا وشعراء، وشجعت حركة التأليف والنشر والإنشاء عند المقتدرين من شباب الجزائر، فأثْرت الواقع الأدبي بتجارب غنية ملهمة، "وإليها يرجع الفضل في احتضان الأدب الناهض –كما كانت تسميه– وتوجيه المواهب المتفتحة، واطلاع الأدباء الجزائريين على ما يجدُّ في عالم الأدب العربي من إنتاج جديد"[30]، ويقول عنها ابن باديس: "الحقيقة التي يعلمها كل أحد أن هذه الحركة الأدبية ظهرت واضحة من يوم برزت جريدة المنتقد المعطلة بقرار وزاري، فمن يوم ذلك عرفت الجزائر من أبنائها كتابا وشعراء ما كانت تعرفهم من قبل، ولم تكن الجريدة أسست للدفاع عن أحد، وإنما أسست للمبدئين الذين لا يزالان مكتوبين على سفر هاته المجلة إلى اليوم[31]" [32].

ثم أنشأ –بعد أن عطّلت جريدة المنتقد– "جريدة الشهاب"، وهي من أشهر المجلات في المغرب العربي وأطولهن عمرا وأبعدها أثرا وأغناهن فائدة وأثرا، دامت خمس سنوات إلا شهرا[33]، وهي عمل من أعماله، ثم فتح فيها المجال للكتاب والمؤلفين والمبدعين لنشر مقالاهم وإبداعاتهم.

ومن الجرائد أيضا "جريدة البصائر"؛ اذ تعتبر الصحيفة الرابعة التي أصدرها ابن باديس باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد تعطيل كل من جريدة السُّنة وجريدة الشريعة وجريدة الصراط على التوالي، والبصائر من أهم صحف الجمعية ومن أكبر الصحف العربية الجزائرية شهرة وانتشارا، ومن أعظمها أهمية لما تركته من أثر عميق في مجرى الحياة الوطنية من جميع نواحيها، حيث اهتمت بشؤون الأمة العربية، وكافحت من أجل إحياء اللغة العربية، كما حاربت اللغة الفرنسية والسلطات الاستعمارية.

إلا أن الإدارة الفرنسية كانت توقف كل صحيفة تشك في توجهها العام، فتعطلت أغلب الجرائد والمجلات باسم الجمعية، والحق أن من يدرس دور هذه المجلات وإسهامها الكبير في مقاومة لغة الاستعمار وإثراء الحركة الأدبية والنهوض بها يجد أنها شكلت دورا مهما واضحا جليا، فقد كانت مستودع الإبداعات وملاذ الكتابات، وما كان لنا أن نرى

ذلك الكم الهائل من المقالات والقصائد العربية لولا وجود هذه المجلات التي شكلت في مجموعها إرثا أدبيا كبيرا، ولولا هذه المجلات لما كان هناك شيء يسمى حياة أدبية في الجزائر، خاصة وأن الاستعمار قد بذل قصارى جهده لعزل الجزائريين عن نشر كل ما يعيد للأمة ثقتها بلغتها ودينها، والفضل في هذا كله لابن باديس رحمه الله تعالى[34].

6- إنشاء الجمعيات والنوادي الثقافية:

من جهود ابن باديس في خدمه العربية ومقاومة لغة المستعمر أن قام بإنشاء النوادي الثقافية باسم الجمعية؛ حتى تستقطب الشباب الجزائري نحوها، وتزيد من اتصالها بالجمهور وحتى تستطيع بث أفكارها بصورة كاملة وشاملة.

فالنوادي جاءت كدعم لجهود المسجد والمدرسة في المدن والقرى جنبا إلى جنب، وقد كانت الجمعية توجه عنايتها من خلال النوادي الاجتماعية إلى تربيه الشباب تربية خلقية ودينية ووطنية تجعلهم أحرص على مقومات شخصية وطنهم العربية الإسلامية؛ اللغة والدين والوطنية الجزائرية، ولذلك كانت الجمعية تعمل على تنظيم منظمات قومية؛ كالكشافة الوطنية والجمعيات الثقافية والفنية[35].

ومن أبرز النوادي التي كان لها دور كبير في استقطاب الشباب وتربيتهم تربيه عربية أصيلة هو "نادي الترقي"؛ الذي وصفه ابن باديس بأبي النوادي وعاصمتهم[36]، تأسس سنة 1926، ومنه تأسست عدة نواد وجمعيات، وقد كان قبلة العلماء والمصلحين حيث دأب ابن باديس على زيارته كلما زار العاصمة، وألقى فيه خطبته المشهورة "ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان" التي أكد فيها على المكون الأمازيغي للأمة[37].

الاستنتاجات:

- اللغة الأم لشعب من الشعوب، هي وسيلةٌ للتواصل ورمزٌ ومكوّنٌ أساسٌ للهوية الوطنية ولثقافتهم، ومنه فاللغة العربية مكون أساس للهوية الوطنية الجزائرية ولثقافتهم.
- المقاومة اللغوية هي تلك الاستراتيجيات والجهود الّتي يبذلها المتكلمون باللغة المستضعَفَة من أجل الحفاظ عليها من التحوّل أو الانحلال في اللغة المهيمنة المستضعِفة، أو هي تلك

الاستراتيجيات والأدوات والجهود التي بذلها الجزائريون من أجل الحفاظ على لغتهم العربية، سواء ضد تحولها إلى العاميّة أو ضد اندثارها وإحلال اللغة الفرنسية بدلها.

- من الأدوات والاستراتيجيات المتّخذة للحفاظ على اللغة، ومقاومة ومحاربة التحول أو التهديد أو الانقراض أو الموت الذي قد يصيب اللغة: المدارس، والمناهج التعليمية، ودور محو الأمية، وتكثيف الإعلام والوعي بعواقب موت اللغة عن طريق الصحف والمجلات، والتلفزيون، والإذاعة، وإنشاء النوادي والملتقيات...
- السياسة اللُّغوية بمفهومها الاستعماري هي مجموعة الاستراتيجيات والأهداف السياسية الّتي تعتمدها السلطة المستعمِرة اتّجاه لغة البلد المستَعمَر بطريقة شرعية أو غير شرعية.
- حاول المستعمر الفرنسي وضع سياسة لغوية لتَغيير السلوك اللغوي للجزائريّين اتّجاه لغتهم الأولى (العربيّة)، بتغيير قيمتها اللُّغويّة، ومن أهداف سياسته اللغوية الاستعمارية في الجزائر:
  - تقويض انتشار اللّغة العربيّة
  - إحلال الفرنسيّة محل اللّغة العربيّة في البلاد ومؤسساتها.
  - جعل الفرنسيّة اللّغة القوميّة للجزائريّين
  - إضعاف مكانة العربيّة بين أبناء الجزائريّن، بتفضيل الدارجة العامية عليها.
  - السعي لتقسيم الجزائر إلى مجتمعات لغويّة.

يعتبر العلامة عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين (1889-1940) من أبرز من قاوم السياسة اللغوية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، ومن أهم استراتيجيات المقاومة اللغوية للخطاب الكولونيالي وهدمه في منجزاته:

- تكوينه المعرفي ونشأته العلمية، وتشبعه بحب اللغة العربية.
- رئاسته للجمعية وإشرافه على التعليم والمقاومة.
- تكوينه لأجيال متعلمة وواعية.
- البعثات العلمية إلى الخارج.
- إنشاء الصحف والمجلات.
- إنشاء الجمعيات والنوادي الثقافية.

الهوامش والإحالات

(1)– ينظر: بن بناجي عبد الناصر، قضايا اللغة واللسانيات في السياقين الكولونيالي وما بعد الكولونيالي دار الفكر العربي، الجزائر، 2020، ص53.

(2)– نقلا من: المرجع نفسه، ص53.

(3)– ينظر: المرجع نفسه، ص54.

(4)– ينظر: المرجع نفسه، ص54.

(5)– ينظر: الفهري عبد القادر، السياسة اللغوية في البلاد العربية: بحثا عن بيئة طبيعية عادلة ديمقراطية وناجعة، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط1، 2013، ص284.

(6)– ينظر: زقام يمينة، السياسة اللغوية الفرنسية في الجزائر وأبعادها ما بعد الكولونيالية: دراسة في إيكولوجية اللغة والإمبريالية اللغوية، أناكال للدراسات العربية، مدريد، 2021، ص283.

(7)– ينظر: المرجع نفسه، ص283.

(8)– ينظر هذه الأهداف بتصرف: المرجع نفسه، ص288.

(9)– ابن باديس عبد الحميد، آثار ابن باديس، جمع وتحقيق: عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية ط1، 1968، (309/3).

(10)– ينظر: بن بناجي عبد الناصر، قضايا اللغة واللسانيات في السياقين الكولونيالي وما بعد الكولونيالي ص53.

(11)– عمامرة رابح، التعريف بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مجلة بونة للدراسات، العدد الثاني تشرين الثاني2004، ص107.

(12)– ابن باديس عبد الحميد، آثار ابن باديس، (79/1).

(13)– ينظر: المصدر نفسه، (81/1).

(14)– ابن بوزيان عبد الرحمن، جهود الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في إحياء تدريس اللغة العربية بتلمسان: 1932–1947، مجلة القرطاس، العدد: 4، جانفي 2017، ص258.

(15)– ينظر: الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1997، (71/1–82).

(16)– ابن باديس عبد الحميد، آثار ابن باديس، (557/3).

(17)– المصدر نفسه، (109/3).

(18)– المصدر نفسه، (243/3).

(19)– المصدر نفسه، (245/3).

(20)– المصدر نفسه، (257/3).

(21)– الجزار أحمد محمود، الإمام المجدد ابن باديس والتصوف، منشأة المعارف، مصر، ط1، 1999 ص22، بتصرف.

(22)– ابن باديس عبد الحميد، آثار ابن باديس، (107/3).

(23)– بن مسعود محمد الأخضر، نثر مصطفى صادق الرافعي، دار الشركة الجزائرية، الجزائر، ط1 1968، ص52.

(24)– ينظر: رمضاني عنتر، جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في النهضة باللغة العربية وآدابها في الجزائر، شركة الأصالة للنشر، الجزائر، 2022، ص57.

(25)– ينظر: ابن باديس عبد الحميد، آثار ابن باديس، (229/3).

(26)– سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1998، (60/1).

(27)– بن رحال يمينة، البعثات العلمية الميزابية إلى تونس ودوره في تفعيل النهضة الفكرية الجزائرية، المجلة التاريخية الجزائرية، العدد 10، ديسمبر 2018، ص165.

(28)– ينظر: الطمار محمد، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 2006، ص176.

(29)– الميلي مبارك، آثار الشيخ مبارك الميلي، جمعه أبو عبد الرحمن محمود، دار الرشيد، الجزائر، ط3، 2012.

(30)– ناصر محمد، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الإسلامي، ط1 1985، ص29.

(31)– المبدآن المكتوبان في واجهة جريدة المنتقد "الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء".

(32)– ينظر: ابن باديس عبد الحميد، آثار ابن باديس، (12/3).

(33)– ينظر: مرتاض عبد المالك، نهضة الأدب الجزائري المعاصر في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر الجزائر، 1983، ص99.

(34)– ينظر: رمضاني عنتر، جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في النهضة باللغة العربية وآدابها في الجزائر، ص66–67.

(35)– ينظر: عمامرة رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، الشركة الوطنية الجزائرية، الجزائر، ط2 1981، ص223.

(36)– ينظر: ابن باديس عبد الحميد، آثار ابن باديس، (359/4).

(37)– ينظر: المصدر نفسه، (483/3).